عن صعوبة الهمزة وتحول القاف همزة في المحكيات العربية

عباس علي السوسوة

أستاذ اللسانيات - جامعة تعز

هذا بحث في ظاهرتين مترابطتين أولاهما الصعوبة التي ذكرها القدماء والمحدثون في نطق الهمزة، وبذلك عللوا لتسهيلها بناء على جنوح اللغات إلى المجهود الأقل، وثانيهما تحول القاف إلى همزة، وهذه لم يعللوها بالميل إلى الأسهل قط، لأن ذلك سيفسد فكرة صعوبة نطق الهمزة مطلقا. كما سنحاول أن نؤرخ لتحول القاف همزة.

قبل الدخول في الظاهرة الأولى نحب أن نقول ان المصادر التقليدية لا تسعفنا بشيء عندما نريد البحث في تغير ظاهرة ما في لغتنا، كأن تذكر تحول صوت إلى صوت، أو تغير في الصيغ واستخداماتها... الخ. ولعلنا نجد ذلك في كتب هي أبعد ما تكون عن اللغة. أقصد نجد ذلك في كتب التاريخ والرحلات والجغرافيا، وبعض المؤلفات الأدبية الموصوفة لغتها باللحن أو الركاكة.

فمن ذلك أننا نجد في كتاب ابن سودون (ت ٨٦٨هـ) كلمات كثيرة تحول فيها صوتا الثاء والذال إلى تاء ودال، ففيه: دي وكده وديك البلد والتنتين ودول وحدّوته[١]. كما نجد في كتاب الشربيني (ت. بعد ١٠٩٧هـ) نفس الظاهرة وقد استبحرت، نجد عنده ـ على سبيل التمثيل ـ التلاتة ودرة وديك وتدبح وخدتهم وخد وده ومدود ودي ودا و اودانك ومدودنا[٢]. بل إنه يذكر أن هذا عام عند الفلاحين: «خدتو: أي أخذته، فحذف الهمزة وابدل الذال المعجمة دالا مهملة جريا على اللغة الريفية»[٣]. وفي الكتاب ـ غير ما أشرنا إليه ـ ظواهر نحوية وصرفية ومعجمية كثيرة جداً.

---

(١) علي بن سودون: نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق محمود سالم، دمشق: دار سعد الدين ٢٠٠١، ص ٢٦٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٠٢، ٣٠٨ على سبيل التمثيل.

(٢) يوسف بن محمد بن عبدالجواد بن خضر الشربيني: هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف، القاهرة: المكتبة المحمودية، ص ١٦، ١٧، ١٨، ٤١.

(٣) نفسه ص ٢٠٠

صعوبة نطق الهمزة:

الهمزة صامت حنجري، انفجاري، لا هو بالمهموس ولا بالمجهور. في نطقه ينطبق الوتران الصوتيان بشدة بحيث ينحبس الهواء انحباسا تاما يعقبه انفراج مفاجئ للوترين، يخرج على اثره هواء الزفير. وسيبويه يعلل لتسهيل الهمزة بقوله «لأنه بعد مخرجها، ولأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجا، فثقل عليهم ذلك لأنه كالتهوع...»(١).

ويبدو أن الخالفين من القدماء رددوا كلام سيبويه كأنه هو، انظر إلى ابن يعيش وهو يقول «الهمزة حرف مستثقل لأنه بعد مخرجها، إذ كانت نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، فثقل عليهم إخراجها لأنه كالتهوع، ولذلك مال أهل الحجاز إلى تخفيفها. إذا كان ذلك في الهمزة الواحدة. فإذا اجتمع همزتان ازداد الثقل ووجب التخفيف. وإذا كانتا في كلمة واحدة كان الثقل أبلغ، ووجب ابدال الثانية..»(٢). وانظر إلى غيره(٣).

تزيد آراء المحدثين في صعوبة الهمزة عن القدماء، في استخدامها لغة المجاز والتصوير، فكأنما الناطق بالهمزة يكابد مكابدة عنيفة، كالتي تزحر عند الولادة. وربما كان برجشتراسر أهونهم عندما قال «الهمزة أصعب إخراجا من غيرها من الحروف، فينبغي لإخراجها غلق فم الحنجرة ـ وهو مفتوح في غيرها ـ فينقطع الزفير المتواصل الخروج أثناء الكلام»(٤).

(١) كتاب سيبويه تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥– ١٩٧٩ جـ ٣/ ٥٤٨.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل، القاهرة: المطبعة المنيرية ١٩٤٩، ٩ / ١٠٧

(٣) انظر مثلا: الصيمري: التبصرة والتذكرة، تحقيق فتحي أحمد مصطفى علي الدين، مكة المكرمة: جامعة ام القرى، ١٤٠٢هـ، ٢ / ٧٣٥، والرضي الاستراباذي: شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٨هـ، ٣ /١٣

(٤) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، اخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبدالتواب ط ٤، القاهرة: مكتبة الخانجي ٢٠٠٣م، ص ٤٢

يقول إبراهيم أنيس إن نطق الهمزة المحققة «من أشق العمليات الصوتية»[١] لماذا؟ يقول: «ولا شك أن انحباس الهواء عند المزمار انحباسا تاما ثم انفراجه فجأة، عملية تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر، مما يجلنا نعد الهمزة أشق الأصوات»[٢] وبمثل قوله يقول الجندي[٣] ورمضان عبدالتواب عندما تحدث عن قانون السهولة والتيسير في تطور اللغات، قال: «صوت الهمز عسير النطق، لأنه يتم بانحباس الهواء خلف الأوتار الصوتية ثم انفراج هذه الأوتار فجأة. وهذه عملية تحتاج إلى جهد عضلي كبير»[٤].

وهناك كتب عربية تتناول الأصوات العربية تجاوزت العشرين، تعزف على النغمة نفسها، وعشرات الأبحاث والمقالات في الدوريات، وعشرات الرسائل الجامعية تسير في الفلك نفسه، وترى أن بعض اللهجات العربية القديمة سهلت الهمزة لهذا السبب[٥]، كما أن كثيرا من اللهجات العربية الحديثة سلكت

(١) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ط٤، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٣، ص٧٧

(٢) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ط ٥، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٥، ص ٩٠

(٣) أحمد علم الدين الجندي: اللهجات العربية كما تصورها كتب النحو واللغة، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٦٥، ص ص ٢٤٧- ٢٦٧. وقد صارت كتابا بعنوان «اللهجات العربية في التراث، تونس، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣» مع حذف أحد أبواب الرسالة. وليس بين يدي الآن.

(٤) رمضان عبدالتواب: التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٩٧ [ط ١=١٩٨٠] ص ٧٦

(٥) لسنا في موقع المامح الضوئي لكل ما كتب حول التسهيل ولكن لا باس بالقول إن سيبويه ٣/ ٥٤١ - ٥٥٦ كان المؤثر والموجه لمن بعده. انظر غير المراجع التي ذكرناها قبل:

أ- البناء الدمياطي: اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر صححه علي محمد الضباع، القاهرة: مطبعة عبدالحميد حنفي ١٣٥٩هـ، ص ٤٤، ٥١، ٥٣، ٥٩، ٦١، ٦٤.

ب- جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسية ١٩٦٦ ص ص ١٢٤ -١٣٣

جـ- عبدالعزيز العيادي: الهمزة في القراءات السبع من خلال مؤلفات الغرب الإسلامي، أطروحة دكتوراه - آداب تطوان ١٩٩٥، صفحات ٥٩، ٧٠، ٧٣، ٧٦، ٨١، ٨٤، ٨٩.

د- خالدية محمود البياع: الهمزة في اللغة العربية، بيروت: دار الهلال ١٩٩٥، ص ٢-١٥٧ (وهو=

السلوك نفسه، وهذا ـ كما زعموا ـ نتيجة لقانون السهولة والتيسير، أو قانون الجهد الأقل. وهذا ما يدعونا إلى الوقوف قليلا عنده.

قانون الجهد الأقل = قانون السهولة والتيسير:

نجد في التراث اللغوي العربي آراء متناثرة عن جزئيات تصب تفسيراتها في الميل إلى السهولة، وتخفيف الجهد، منها تفسير حالات الإدغام، وبعض أنواع الحذف، وكراهة توالي الأمثال، وغيرها على أن ذلك لم يكن عندهم مصوغا نظريا على هيئة قانون لغوي يفسر تطور ظواهر اللغات.

أول من نسب إليه هذا القانون اللغوي الأمريكي وليم دوايت ويتني (١٨٢٧–١٨٩٤)، وتحدث عنه مطوّلا في كتابه «حياة اللغة ونموها، مختصر في علم اللغة». ومن ضمن ما قال عنه: «كل ما نكتشفه من تطور في اللغة ما هو إلا أمثلة لميل اللغات إلى توفير المجهود المبذول في النطق. كما أن هناك استعدادا للاستغناء عن أجزاء الكلمات التي لا يضرّ الاستغناء عنها بدلالتها»(١).

ويؤيده من علمائنا المحدثين، دون تحفظ، إبراهيم أنيس، إذ يرى «أن الإنسان في نطقه يميل إلى تلمس الأصوات السهلة التي لا تحتاج إلى جهد عضلي فيبدل مع الأيام بأصوات لغته الصعبة نظائرها السهلة»(٢).

كذلك يؤيده رمضان عبدالتواب لاسيما في التخلص من الهمز، وإن كان يتحفظ في انطباقه على كل تغير صوتي(٣). أما تمام حسان فيورد عدة شُبه حول قانون السهولة(٤).

= كتاب كارثة بكل المقاييس)

هـ- عبدالقادر عبدالجليل: الأصوات اللغوية، عمّان: الجامعة الهاشمية ١٩٩٨ص ١٨٩

(1) William Dwight whitney : The life and Growth of language , An Outline of Linguistic Science , New York 1875 , p 48.

(٢) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ،ص ٢٤٢

(٣) رمضان عبدالتواب: الطور اللغوي ٧٦، ٨٦

(٤) تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨، ص ص ٤٥ – ٤٧

وأما زميل دراسته عبدالرحمن أيوب فيعلق بالرفض على كلام ويتني قائلا: «لو صح هذا لاختفى صوت الذال مثلا من جميع لغات البشر... وإذا كان يسبرسن قد قبل مبدأ توفير الجهد كسبب في التغيير فانه لم يستبعد أسبابا أخرى ربما كان لها أثر مضاد على هذه النزعة. ثم إن عملية السهولة والعُسر أمر نسبي، وما قد يتصوره البعض من سهولة أو صعوبة ربما لا يكون إلا أثرا من آثار العادة اللغوية التي تنطق بهذا ولا تنطق بهذا»(١).

ومثله يفعل أحمد مختار عمر (تلميذ إبراهيم أنيس) فبعد أن عرض لقانون الجهد الأقل، رأى أنه يخالف الواقع إذا قارنا النظم الصوتية للغتين الفرنسية واللاتينية، إذ سارت الفرنسية نحو الأصعب(٢). وفي الختام ينقل عن ماريو باي في «لغات البشر» «إن التطورات اللغوية اللغوية تخضع لعوامل أخرى اكثر تعقيدا من مجرد رغبة المتحدثين بها في بذل جهد أقل حتى يوفروا على أنفسهم بعض المشقة والعناء. ولو صح هذا لصارت اللغات جميعا سلسلة من الأصوات المتحركة، لأنها تتطلب جهدا أقل في نطقها، ولكننا نجد الأمر على العكس من ذلك، إذ تقل الأصوات المتحركة وتزيد الأصوات الساكنة المتعاقبة التي تحتاج إلى جهد كبير من المتحدث عند نطقها»(٣).

ونحن مع عبدالرحمن أيوب وماريوباي في هذا الأمر. على أننا جعلنا كل ذلك مدخلا للحديث عن صعوبة نطق الهمزة التي أجمعوا عليها.

هل نطق الهمزة صعب؟

في البداية نقول إن كلام سيبويه في وصف الهمزة حق، ولكن متى ؟ إنه حق

(١) عبدالرحمن أيوب: اللغة والتطور، القاهرة ١٩٦٤، ص ٢٦ وعنه عبدالقادر عبدالجليل ٢٦٦ -٢٦٧

(٢) أحمد مختار عمر: دارسة الصوت اللغوي، ط ٤، القاهرة: عالم الكتب ١٩٩١، ٣٧٢ -٣٧٣ [ط ١ = ١٩٧٦].

(٣) أحمد مختار عمر: دارسة الصوت اللغوي، ص ٣٧٤

في محاولة نطق الهمزة منفردة بوعي كامل. غير أن كل أبناء لغات العالم لا ينطقون أصواتا منفردة، بل ينطقونها في شكل سلاسل اصطلحنا عليها بالمقاطع أو الكلمات، بحيث يصبح للصوت المفرد ـ لا المنفرد ـ قيمة تمييزية في إطار نظام. وهنا نرى أن ناقلي كلام سيبويه قد حملوا وصفه أكثر مما يحتمله واقع اللغة العربية، إذ إن الصعوبة في نطق الصوت منفردا سيشمل الصوامت الانفجارية / ق، ك / مثلا.

فإذا جعلت هذه الفكرة على ذكر منك فهيّا وجرّب شخصيا نطق الكلمات الآتية، فكلها مبدوء بهمزة / أنت، أكل، أبوه، أين، أربع / أتحس ثقلا ؟ أتثير لديك رغبة في التهوع ؟ ثم جرب المنطوقات الأتية والهمزة ـ كما ترى ـ في موقع الوسط ـ: / جاءَه، رآه، بئس / ؟ أتحس ثقلا ؟ إذا فالهمزة عندما تقع بدايةً للمقطع سواء اكانت في أول الكلمة أم في وسطها، لا صعوبة البتة في نطقها بل إنها شبيهة بنطق الحركات / a، i، / u والصور الأكوستيكية تثبت ذلك، بحيث لا يبقى مجال للانطباعات الفردية.

دعنا بعد ذلك نجرّب نطق الهمزة في السياقات الآتية: / ذِئب، بِئر، ظِئر، شَأن، لُؤم ، بُؤس /. هنا جاءت الهمزة في مقطع طويل مزدوج الإغلاق، وكانت هي الصامت الذي يلي الحركة القصيرة في المقطع. كل هذه الكلمات إنما هي مقطع يتكون من: صامت + حركة قصيرة + صامت + صامت.

هنا الصعوبة النطقية متحققة، لأن الناطق بعد أن ينتهي من انسداد النفس ـ في المرحلة الأولى من نطق الهمزة ـ فالانفجار اللاحق له، يريد نطق الصامت المجاور مباشرة. وهنا فالصعوبة في هذا السياق تأتي من الجهتين.

دعنا نحوّل هذه الكلمات إلى مقطعين، بأن نجعلها منونة الأواخر. فتصير مثل: / ذِءْ بُن / أي من مقطعين، كل منهما يتكون من صامت + حركة + صامت.

وهنا نجد صعوبة أخف من وقوعها في مقطع طويل مزدوج الإغلاق. وبمثل هذه الصعوبة الخفيفة أن تقع نهاية لمقطعٍ طويل مثل: / جاء، شاء، فاء /. فهي مقطعياً مثل / روح، فيل، مال / مكونة من صامت + حركة طويلة + صامت. وإذا حولنا هذا المقطع إلى مقطعين بأن نلحق حركة به تزول هذه الصعوبة، إذ تصير الهمزة بداية مقطع وتشبه الحركة.

ويؤيد ما قلنا أن سلمان حسن العاني أتى بصور نطق الهمزة طيفيا وقال: إن الهمزة تظهر في البداية انفجاراً متبوعًا بفجوة سكون، وأحيانا يتبع الانفجار ضجيج منخفض، وفي حالات تظهر الهمزة صوتاً انزلاقيا قصيرا تبدأ به حزم الحركة الثانية.

وهي في الوسط ـ إلا إن كانت بين حركتين ـ تظهر كفراغ سكوني. وبين حركتين تظهر كصوت انزلاقي شبيه بالحركة(١).

نخلص من كل العرض السابق أن الهمزة صعبة في بعض السياقات دون بعض، أما أنها صعبة النطق بإطلاق فغير صحيح البتة.

على أن الذين قالوا بالصعوبة من التطوريين العرب سكتوا نهائيا عن تحول القاف في بعض المحكيات إلى همزة التي لا يوجد صامت أصعب منها ؟

متى تحولت القاف إلى همزة؟

هناك مستشرقون وعرب حاولوا التاريخ للعربية، إما عامة، أو لبعض ظواهرها. لكنهم جميعا لم يذكروا متى تحولت القاف همزة. إليك هذه الأعمال:

١- برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية (١٩٢٩م)

(١) انظر, Salman . H.AlAni: Arabic phonology .mouton : Indiana university (1970) pp60-61.

وللكتاب ترجمة صادرة عن النادي الأدبي الثقافي في جدة عنوانها (علم التشكيل الصوتي في العربية) وهو عنوان مرغوب عنه.

العنوان خادع أصلا، ففي الكتاب باب عن أصوات العربية والساميات (ص ص ١١- ٤٦) وفيه صفحات عن الهمزة (٣٨-٤٦).

٢- يوهان فك: العربية، دراسات في اللغة و اللهجات والأساليب. ترجمة عبدالحليم النجار، القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٥١.

٣- محمود فهمي حجازي: اللغة العربية عبر القرون، ط ٢، القاهرة: دار الثقافة ١٩٧٨ [ط١ = ١٩٦٨]

٤- احمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية في مصر [ط١ =١٩٧٠] و في [ط٢ =١٩٩٢] صار العنوان: تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، عالم الكتب بالقاهرة.

٥- رمضان عبدالتواب: التطور اللغوي [سبقت بياناته].

٦- أحمد نصيّف الجنابي: ملامح من تاريخ العربية، بغداد: دار الرشيد ١٩٨٧.

٧- كيس فرستيغ [صوابه فرستيخ]: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها. ترجمة محمد الشرقاوي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣، وقد عرضنا لمحتويات الكتاب وللترجمة عرضا نقديا، في عدد سابق من هذه المجلة الغراء.

٨- كريم زكي حسام الدين: العربية تطور وتاريخ، القاهرة : النهضة المصرية ٢٠٠٢.

٩- هويدي شعبان هويدي: العربية في العصر المملوكي، ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٩.

١٠- البدراوي عبدالوهاب زهران: اللغة العربية في عصر الحروب الصليبية كما تمثلها كتب التاريخ، دكتوراه، دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٩. ونشرت بعنوان معدل في دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١.

أغرب إنو ليتمان عندما ذكر أن إبدال القاف همزة موجود في أسماء الأعلام

الفينيقية، أي قبل ميلاد السيد المسيح بخمسة قرون[١]. ولم يعلل لهذا الإبدال صوتيا ؛ إذ لا تقارب بين مخرجي القاف والهمزة. وهذا يشبه إبدال الضاد عينا في الآرامية بدلا من الصاد في بقية أخواتها الساميات. إذ لا تقارب بين مخرجي العين والضاد. فهما مسألتان محيرتان للباحثين. وإذا توجهنا تلقاء تحول القاف همزة في العربية، فإننا نجد برجشتراسر ـ الذي لم يذكر متى تحولت القاف همزة ـ يعلل لهذا التحول بما سماه ذوق العصر، ويزعم ـ مجرد زعم دون دليل ـ «أن بعض أهل القاهرة كان استخشن نطق القاف واستغلظه، فأبدله بالهمزة. وهذه العادة سادت بين أهل القاهرة الخاصة ثم العامة، ثم سرت منها إلى بعض المدن الكبيرة كدمشق، ثم إلى أصغر منها كالقدس الشريف.»[٢].

وأحمد مختار عمر يذكر شاهد نفي ـ لا شاهد إثبات ـ أن يكون القاف قد تحول إلى همزة نطقا أو كتابة حتى أول القرن التاسع الهجري. قال «نشير إلى أن مخطوطات دير القدس مكاريوس التي تمثل الكلمات العربية برموز قبطية، تكشف عن أن صوت القاف حتى ذلك الوقت ، لم يكن قد كُتب أو نطق في شكل همزة بين المثقفين أو أنصافهم، ولم يرد فيها مثال واحد لهذه الظاهرة»[٣].

ونحن نصدقه في إطار شاهد النفي، غير أن لدينا شاهد إثبات من القرن الهجري السادس، أن أشخاصا مرموقين في الدولة الأيوبية كانوا يبدلون القاف همزة. جاء عند المؤرخ ابن واصل (ت٦٩٧هـ) في حوادث سنة ٦٢٢هـ: «وفي هذه السنة توفي القاضي جمال الدين المصري، قاضي القضاة بدمشق وبلادها... وكان شديد السمرة، يلثغ بالقاف ويجعلها همزة فصلى ليلة بالملك المعظم، فلم يُفتح له

(١) إنو ليتمان: «بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك فؤاد، القاهرة، مج ١٠ ج١، مايو ١٩٤٨، ص ٦-٧

(٢) برجشتراسر: التطور النحوي، ص ٢٨

(٣) تاريخ اللغة العربية، ص ١٦٩ هـ ٤

من القرآن إلا قوله ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ الآية، فأبدل كل قاف فيها همزة، فضحك الملك المعظم، وقطع الصلاة... وقال ابن عنين يهجوه...»(١).

وهنا نلاحظ ما يلي:

١- أن الذي أبدل كل قاف همزة قاضي القضاة، وليس من العامة.

٢- لا نظن أن هذا السلوك اللغوي آت من فراغ، بل نظنه كان منتشرا حتى يصل تأثيره إلى القاضي.

٣- كان هذا السلوك معيبا في استخدام المستوى الفصيح، أما إذا كان في القرآن الكريم فالمصيبة أعظم.

٤- هذه الآية هي السابعة والعشرون من سورة المائدة، وتكملتها ﴿ إذ قرّبا قرباناً فتُقبّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنّك، قال إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ صدق الله العظيم. في هذه الآية تسع قافات، ولك أن تتخيل كيف تكون حال التلاوة إذا تحولت إلى تسع همزات، فوق الهمزات الأصلية !

٥- ليست هذه (اللثغة) من اللثغات الفردية المعروفة في نطق الراء لامًا أو واوًا أو ياءً، ولا في نطق السين والصاد ثاء، ولا نطق الزاي ذالاً. بل نظنها اتجاها لهجيا كان مقبولا عند العامة في تلك الحقبة.

وبعد هذه الحقبة بأكثر من قرن ونصف قرن نجد خبرا أكثر صراحة، نقل ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ) في صفات شخصية عامة قائلا: «وكان علي السلاخوري يبدل القاف بالهمزة، كما هي عادة أوباش الناس من العامة»(٢).

وهنا نلاحظ:

(١) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٤، تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة: وزارة الثقافة ١٩٧٢، ص ١٧١-١٧٢

(٢) أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٥ تحقيق إبراهيم طرخان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧١، ص ١٧١.

١- إبدال القاف همزة عادة أوباش العامة، وهو أمر معيب عند غير العامة.

٢- المقصود بالعامة هنا ـ فيما نحسب ـ عامة سكان العاصمة القاهرة، لأن بقية العامة في أرياف مصر في الوجه البحري، وفي الوجه القبلي ينطقون القاف البدوية / g/ التي هي مجهور الكاف، حتى الآن.

٣- ما ظنه برجشتراسر في النقل السابق عنه من أن الخاصة هي التي استغلظت القاف، ظن غير صحيح.

٤- إذا كان هذا ما ظهر في الإشارة الأولى عند ابن واصل، ثم في الخبر الثاني عند ابن تغري بردي، فإذن يكون التحول من نطق القاف إلى الهمزة عائداً إلى القرن الخامس الهجري. اللهم إلا إذا جدت مصادر أخرى عن الموضوع تجعلنا نغير رأينا.

نطق القاف همزة في مصر في القرن العشرين وما بعده:

أشار علي عبدالواحد وافي (ت ١٩٩١م) إلى بحث حِفني ناصف «مميزات لغات العرب» وأنه نَسَبَ بعض سكان الفيوم وبني سويف وإبيار ورشيد إلى قريش، فهم ينطقون القاف صريحة كالقرشيين، ونسب من عدا هؤلاء من أهل الصعيد والوجه البحري إلى غير قرشيين لأنهم ينطقون بالقاف مشوبة بالكاف(١). وذكر وافي أيضا أنه سمع بعض شيوخ أسرته في بني سويف ينطقون القاف القرشية(٢). وقبله ذكر العلامة أحمد تيمور (ت ١٩٣٢م) أن «قلب القاف همزة هو قياس مطرد عند أهل المدن وغالب الوجه البحري. وأما أهل رشيد وما حواليها، وبعض جهات بني سويف، فإنهم ينطقون القاف القرشية...»(٣).

(١) علي عبدالواحد وافي: فقه اللغة، ط٨، القاهرة: دار نهضة مصر ١٩٧٨، ص ١٣٧ [ط١ = ١٩٤١]، وأشار إلى كتاب حفني ناصف، ص ١٢٥. وكنت قرأته منذ سنوات، وفيه ما نسب، غير أنه ليس في يدي الآن. لا أريد التعليق على النسب القرشي، فالمهم عندي نطق القاف.

(٢) علي عبدالواحد وافي: فقه اللغة، ص ١٣٦ هـ ٣

(٣) أحمد تيمور: معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق حسين نصار، القاهرة: الهيئة العامة للتأليف ١٩٧١، ١/ ٧٤

وأظن أن في كلامه سهوا، وأنه يصح تماما إذا حذف منه (وغالب الوجه البحري). ذلك أنني درست في مصر احدى عشرة سنة (٣٠/١٠/١٩٧٧-٣٠/١٠/١٩٨٩)، فوجدت أنه رغم سيطرة وسائل الإعلام المنطوقة: إذاعة وسينما وتلفزيون، وهذه تحل فيها الهمزة مقابلة للقاف الفصيحة، فإن القاف البدوية / الكاف المجهورة هي السائدة في غير المدن الكبيرة، حضرا وريفا وبدوا. أما القاف القرشية الفصيحة في العاميات المنطوقة ـ فيبدو أنها انحسرت أكثر فأكثر. ذلك أن الجزر اللغوية التي كانت تنطق فيها أخذت القاف البدوية أو الهمزة تحل محلها. فعلى حدّ علمي أن شيوخ أسرة الدكتور علي عبدالواحد وافي كانوا آخر الناطقين بها في محافظة بني سويف[١]. أما في رشيد بمحافظة كفر الشيخ، فما يزال نطق القاف القرشية مسموعا عند العامة دون نكير. ولقد سمعت في صيف ١٩٩٨م في قهوة بمنطقة برج مغيزل برشيد هذه الجمل وأمثالها:

– ناولني القُفَّة، ألله يستُرَهَ معاك.

– أنا قاعد في القهوة، مِستنّيك يجي خمسين دقيقة.

– مِش حَطّيت الطلب بسرعة قبلِ الشاي مَيبرَد ليه؟

كل ذلك يقال بقاف كالتي نسمعها عند المجيدين من قراء الكتاب الكريم.

ومن المهم التنبيه على أن ليست كل كلمة فصيحة فيها قاف ستتحول في محكيات الهمزة إلى همزة. فالكلمات التي دخلت عامية المدن المصرية من مصدر ثقافي أعلى، تظل محتفظة بالقاف، أو يستبدل بالكلمة مرادف آخر[٢]، خذ عندك: نقابة، قُرآن، المقدم، الفريق أوّل، من غير قيد ولا شرط، النقيب،

(١) سألت الزميل د. علي حسن عبدالغني اسمعيل، من آداب بني سويف، في مؤتمر علمي بجامعة الفيوم، في إبريل ٢٠٠٨م. فقال: كل المراكز والقرى في محافظة بني سويف تنطق القاف قافا بدوية، إلا عاصمة المحافظة فتسود فيها الهمزة.

(٢) تفصيل ذلك في: محمود فهمي حجازي: العربية عبر القرون، ص ٨ – ٩.

القروض.. فقد يستبدل بالقاهرة كلمة مصر، وبالقرآن كلمة مُصحف.

وإذا أخذنا بتقسيم شيخنا السعيد بدوي للعربية المعاصرة في مصر على خمسة مستويات هي: فصحى التراث، وفصحى العصر، وعامية المثقفين، وعامية المتنوّرين، وعامية الأميين. فإن القاف الفصيحة تقل ابتداء من المستوى الثالث حتى تكاد تختفي في الخامس(١).

ومما سبق يتضح أن نحو ٧٠ مليونا في مصر وبلاد الشام استبدلوا بالقاف ـ منذ زمن ـ الهمزة، ولا يمكن أن يفروا من الأسهل إلى الأصعب(٢).

إبدال العين همزة في تهامة اليمن:

مما نحن في سبيل دارسته أن المواطنين في تهامة اليمن ينطقون الهمزة بدلا من العين، إذا قابلنا ما ينطقونه بنطق إخوانهم في بقية أرجاء اليمن. وتهامة اليمن، شريط ساحلي غربي يمتد عرضا ما بين ٣٠- ١٣٠ كيلا، ويخترق محافظات تَعز والحُدَيدة وحَجَّة وصعدة(٣). وفيه مدن وقرى وبدو. تسمع عندهم: أبّاس ألي أُمَر (عباس علي عمر)، وأنا أُبيدَك (أنا عُبَيدَك)، يا أمَّة (يا عَمَّة)... الخ. حتى إن المثقفين فيهم لا يستطيعون تغيير هذا النطق.

هنا نتساءل: هل قال أحد من القدماء أو المحدثين إن العين أصعب نطقا من الهمزة؟ لم يقل بذلك أحد. فلماذا إذن لا ينطق أبناء تهامة العينَ؟ الله أعلم؛ فربما كان ذلك ميراثا قديما في هذه المنطقة.

(١) السعيد محمد بدوي: مستويات العربية المعاصرة في مصر، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٣، ص ٨٩، ١٠٤، ١٠٥

(٢) أخبرني الزميلان د. صلاح كزارة و د. أحمد محمد قدّور. من آداب حلب أن الهمزة تقابل القاف في الفصحى، في المدن الكبرى: كدمشق وحلب وحمص وحماة. أما القاف البدوية فتسود في المناطق البدوية وكثير من الأرياف. أما القاف القرشية فتسود في محافظتي الساحل السوري: اللاذقية وطرطوس حضرا وريفا.

(٣) استعملنا في التمييز كيلاً بدلا من (كيلو متراً) كما فعل المرحوم العلامة حمد الجاسر.

وبهذه المناسبة فإنّ باحثا غير يمني، امتلأ ذهنه بفكرة صعوبة الهمزة، وفي الوقت نفسه أخطأ في استنتاج أن التهاميين يبدلون الهمزة ميما (!!؟) في بعض الكلمات، ففي: إِبرة وأزيب، وأروح يغيرونها إلى: مِبرة ومَزيب ومروَح[١]. فهو لم يلحظ أن هذه فيها (ام) أداة التعريف! فذهب يعلل لهذا الإبدال المزعوم بأن «الهمزة صوت حنجري شديد انفجاري (هكذا) بعيد المخرج، يحتاج إلى جهد عضلي كبير.. فاختار التهامي الميم بدلا عن الهمزة، لأنه يفضل أن يقتصد في الجهد العضلي، ليريح نفسه من العناء والمشقة اللازمة لنطق الأصوات الصعبة»[٢]. ثم يتحير صاحبنا عندما يجدهم ينطقون كل عين في الفصحى همزة. فماذا يصنع ؟ إنه يعلل ذلك بتأثير البدو والموجودين في تهامة الذين يميلون إلى الأصوات الشديدة في نطقهم !! ولسنا في حاجة إلى القول بتعبده برأي المرحوم إبراهيم أنيس في هذا الصدد[٣].

ختام:

نرجو أن نكون قد أزلنا بعض الأوهام المنتشرة في اللسانيات العربية حول صعوبة نطق الهمزة، وحول قانون الجهد الأقل، فلو صح هذا الوهم ما تغير نطق القاف على همزة لدى قسم كبير من أبناء العروبة، ناهيك عن تحول العين إلى همزة عند التهاميين. وكذلك حاولنا التاريخ لتحول القاف همزة.

نسأل الله أن يغفر لنا زلات الفكر والقلم. آمين !

---

(١) إبراهيم عبود السامرائي: « دراسة الأصوات اللغوية في اللهجة التهامية »، مجلة دراسات يمنية، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، العدد ٧٦ (٢٠٠٥م) ص ص ٩٧-٩٨

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٩ وانظر بحثنا في هذه المجلة « سطوة الشهرة على آراء الباحثين في اللسانيات العربية » مج ١٠، ع٤ ص ص ١١٧ -١٣٧.